صور من الحياة :

انتقـــام

للأستاذ كامل محمود حبيب

دعنى — يا صاحبي — أنفض أمامك جملة حال ، فما فى حديثى ما تضيق له النفس ولا ما ينزعج له القلب . هذا أسرى وما كان لى الخيرة منه وإن لأضطرب بين نوازع جياشة لا تهدأ ولا تستقر .

فتعال — يا صاحبي — واجلس إلى جانبي وألق إلىّ السمع ، ثم لا تلمنى فأنا تجربة قاسية من تجارب الحياة ...

صفعتنى الأيام فى غير شفقة ولا رحمة — أول ما صفعت — حين ماتت عنى أمى طفلاً أدرج فى فناء الدار ، لا أكاد أعى من أمر الحياة شيئاً ، ولا أكاد أناى عن حِضن أمى إلا ريثما أعود إليه أجد فيه الحياة والدفء والحنان جميعاً ، وأبى بين عمله وشبابه فى شغل . وافتقدتُ أمى حين افتقدت القلب الذى يسعدنى وأطمئن إليه ، وحين غاضت الابتسامة الرقيقة الساحرة التى تجذبنى وتحنو علىّ ؛ فرحت أسأل عنها فى شوق وأبكى بُعدها فى حزن ، وأهلى من حولى يهونون بأن أمى ذهبت إلى القاهرة تطب لرضها . وعجبت أن لا أجد لها شبيهاً فى مَن أرى . فهذه عمتى وهذه خالتى وهذه وهذه . . . لا أحس فى واحدة منهن معنى الأمومة ولا ألمس روح الحنان .

واشتد شوقى إليها ولجّت بى اللهفة إلى رؤيتها ، ثم انطوت الأيام وعبرتى ما ترقأ وحنينى ما يخبو .

وصحبتنى جدتى لأبى — ذات ليلة — إلى دارها ، وأرادتنى على أن أستحم وجاءت هى تزيل عنى أوساخ الإهمال وتمسح أمغار الشارع ، تدهن شعرى بالزيت وتضمخ جسمى بالعطر ثم تلبسنى الحرير فى رفق وتلفنى فى الدمقس فى عناية .

يا عجباً ! ما لوجه هذه العجوز الشمطاء يفيض بشراً وإشراقاً وما لها تتزين وتتطيب كأنها فى ليلة زفافها ! .

وسألتها ما الخبر ، فقالت : « يا بنى ، غداً ستذهب لترى أمك فى بيت أبيك » وثوب قلبى طرباً وطار عقلى سروراً ، وشملتنى طفولتى فما أستطيع أن أكتم دوافع نفسى ، فذهبتُ أملأ الدار ضجيجاً وصخباً ، أغنى وأسبح وأنادى وأقفز وأجرى ، يكاد إهابى ينشق نشاطاً على حين يغيض قلبى فرحاً . غداً سأرى أمي ! وا فرحتاه ! وذهبتُ أهيئ نفسى للقيا الحبيبة أزيّن وأناتق واقف أمام المرآة أتحسس ملابسى وشعرى وحذائى . ونامت العجوز وأنا إلى جانبها لا يجد النوم إلى عينىّ سبيلا ؛ والأخيلة الجميلة البسامة تتوزعنى وأنا بينها لا أحس مدى الزمن ولا يضنينى السهر وقد مضى الليل إلا أقله .

وفى الصباح انصرفت بجدتى أتبعها وأتعلق بثوبها ، أستنجزها ما وعدت وهى تستمهلنى ، والساعات تنطوى . والأمل يخبو فى نفسى رويداً رويداً حتى تغشى الوجوم والأسى وبدت علىّ الخيبة وضاع الأمل . وعند الظهر قالت لى جدتى : « الآن ، نذهب لنرى أمك » .

وذهبتُ إلى دار أبى ، إلى جانب جدتى ، أختال فى الحرير والدمقس وأزهو فى طفولتى وعطرى وأرتو هنا وهناك وقلبى يخفق فى شدة وعنف ، تُرى أين كانت تتوارى أمى ، أخفيّاً كانت تطب لرضها فى القاهرة ؟ ودخلت حجرة واسعة من حجرات الدار فإذا عبير المسك يتضوع فى نواحيها وتفوح فى جنباتها روح العطر . لقد تأنقت الحجرة فى زينتها وتبرجت فى أثاثها فهى تخطف البصر وتخلب اللب . وأخذتُ أقلب البصر فى أرجاء المكان فما رأيت المرأة الجالسة فى أقصى الحجرة إلا حين قالت جدتى العجوز « هذه أمك » واندفعت أنا إليها ألقى بنفسى بين ذراعيها وأدفن وجهى فى حجرها لأستشعر الحنان والعطف وقد فقدتهما منذ زمان .

وألقيتُ بنفسى فى حجرها ولكنى لم أحس بذراعيها تنفرجان لتضماني ولا بنفسها تستبشر للقائى ولا بقلبها ينبض لقدمى ، فرفعت بصرى إلى وجهها أحدّق فيه ، واستلبتنى الدهشة والحيرة من حياء الطفولة فأرسلت من بين شفتىّ صرخة مدوية وأجهشت للبكاء ثم رجعت إلى الوراء فى فزع ، ورجعت صوب الباب لأن هذه المرأة لم تكن أمى . وشعرت بأنى احتقر جدتى وأمقت المرأة التى زعموا أنها أمى .

وألفيتُ أبى لدى الباب فربّتَ على كتفى فى حنان وضمنى إليه فى عطف وقال : ما بالك ؟ قلت : مَن عسى أن تكون هذه المرأة ؟ قال : هى أمك . قلت : لا . قال : ألا تعلم أن لك أمّين واحدة فى القاهرة وهذه هنا ! قلت : فما لى لم أرها من قبل ؟

وتلثم لسان أبي وماتت الكلمات بين شفتيه ، وبدا لي أن أبي كذّاب فشعرت بأنني أحتقره وأمقته .

آه ، لقد انطوى صدري على كراهية أبي وجدتي والمرأة التي زعموا أنها أمي .. كرهتهم جميعاً لأنهم كذبوا .. وأحسست بالأسى يتدفق عارماً إلى قلبي . وجرفني الحزن حين أيقنت بأنني فقدت أمي إلى الأبد .

وحين رأتني زوجة أبي قذى في عينيها اتخذتني هدفاً لنقمتها وثورتها وعشت في الدار ضائعاً لا أفوز إلا بفضلة مما يترك الخادم . حينذاك أرسلني أبي إلى المدرسة في المدينة ودفع بي إلى خادم يقوم على أمري فكان هو أبي وأمي وجلادي ، فهو أب لا يعرف الرحمة وأم لا تعرف الحنان وجلاد لا يعرف الشفقة . وعشت هناك أشعر بالغربة فأبي لا يزورني إلا لماماً إرضاء لزوجته ، وهو إن فعل لا يحبوني بعطفه ولا يهش للقائي ولا يتبسط معي في الحديث ولا يهتم بحاجاتي ولا يعنى بطلباتي ، ومرت الأيام وهو ينأى عني رويداً رويداً حتى أصبح غريباً عن نفسي وعن قلبي في وقت معاً . وأغص بالحرمان فالخادم ينعم وحده بمال أبي وأنا لا أنال قرشاً واحداً أشتري به بعض ما يشتري أترابي . وأشرق بالهانة فأنا أغدو إلى المدرسة وأروح في ثياب مضطربة قذرة مهلهلة على حين أن رفاقي يرفون في الجديد والنظيف . وأحس بالضعة فما أستطيع أن أدفع عن نفسي عبث زملائي وتهكمهم فأبي من قوة أن أفعل . وتمادى صحابي فامتدت أيديهم إلى وجهي ورأسي ، فطرت أنزع عنهم وأفر منهم وهم يجدّون في إثري لأكون لهم سخرية ولهواً . ولم تستطع نفسي أن تطمئن إلى هذا الوضع الوضيع وأنا عاجز اليد واللسان والقلب ، فذهبت أتلمس مهرباً فكنت أقضي أوقات الفسحة مختبئاً في (المراحاض) ثم أنفلت — آخر اليوم المدرسي — إلى بيتي أحمل همي بين جنبيّ فما أجد متنفساً إلا أن أشكو إلى هذا الخادم الفظ وهو لا يلقي بالاً إلى شكاتي إلا والعصا على ظهري ، وأبي بين عمله وشبابه في شغل .

وقضيت السنوات الأولى من عمري المدرسي أتواري عن زملائي خشية أن تنالني أيديهم وألسنتهم ، وأنطوي على نفسي في ركن من حجرة خيفة أن أعرض أعمالي البالية على أعين الناس في الشارع ، فمشت في منأى عن الناس أطمئن إلى الوحدة وأرى فيها سلوان القلب وراحة النفس .

أفكنت أطمئن إلى هذا الوضع الوضيع في سهولة ويسر ؟.

ليت شعري ما ذا كان يضطرب في خاطري حين أخلو إلى نفسي وإن قلبي ليتضرّم غيظاً ويحتدم حقداً على أولئك الذين اتخذوني سخرية ولهواً ؟ .

وثارت نفسي ثائرة القرم إلى الانتقام واشتد بي الهم إلى الثأر وشغلتني الخاطرة فملأت نفسي وسيطرت على أحيائي ، وفي رأيي أن الناس يحترمون القوي ويتملقونه ويسخرون من الضعيف ويمتهنونه . وعزّ عليّ أن أعيش عمري في القلة والمسكنة فعزمت على أمر ...

ومرت أقضي شطراً من يومي في أحمد الأندية الرياضية ، وشطراً آخر بين أوراق ودرسي ، ومرت الأيام فإذا ساعدي قد اشتد وعضلي قد تكتل وإذا عقلي قد استوى واستقام .

وقويت نفسي حين رأيتني في الصدر قوة وعلماً ، فطردت خادمي بعد أن أذقته وبال أمره ، وانطلقت إلى أبي أطلب — في شدة وعنف — أن يرتب لي من المال ما يحفظ عليّ كرامتي وكبريائي فما تمهل ، وانطويت عن زوجة أبي وأنا أحدجها بنظرات فيها الاحتقار والبغض ، ووجدت اللذة والسعادة في أن أبطش بأترابي وأقاربي فاندفعت أذيقهم الذلة وأسومهم الخسف لا تأخذني بهم رأفة ولا أستشعر نحوهم الرحمة .

وتخرجت في الجامعة لأفرغ إلى الانتقام وبي إليه قرم وأخلص إلى الأخذ بالثأر وبي نهم إليه . وسلكت إلى غايتي سبلاً شيطانية وأنا أعجب أن تسيطر عليّ روح الإجرام وأنا رجل علم وأدب . ولكن ، هل كان الشيطان إلا وعاء علم وأدب لبسته روح الإجرام ؟ .

ودفعتني شيطانيتي إلى أفانين من الانتقام أحكم نسجها ، فانطلقت ...

اليوم أطفأت غلتي وأشفيت داء صدري ، بعد أن عذبت من سخروا مني طفلا وقتلت من قسوا عليّ صغيراً ، فهل تراني ندمت على أمر وأنا أشعر بأنني قد أديت رسالة قلبي ؟ .

ولكن عين العدالة لم تغفل عني فأنت ترى الآن النل في يدي والقيد في رجلي وسيف الجلاد ينتظرني بعد أيام .

فقل لي — يا صاحبي — من عسى أن يكون الملوم ، من عسى أن يكون يا صاحبي ؟ .

فاضل محمود حبيب